

225556 - تفسير قوله تعالى : (كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ) .

السؤال

ما تفسير قوله تعالى : كتب عليكم القتال وهو كره لكم ... الآية ؟ ، وما تفسير فرار الصحابة رضي الله عنهم إن صح التعبير في غزوة حنين ؟ وهل الشعور بالخوف أو الجبن من الجهاد في سبيل الله يعد نفاقاً أم هو مسألة قوة إيمان ؟ وما الحل إذا وجد هذا الشعور ؟

الإجابة المفصلة

الحمد لله.

أولاً :

قال الله عز وجل : (كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) البقرة/ 216 .

قال السعدي رحمه الله :

" هذه الآية ، فيها فرض القتال في سبيل الله ، بعد ما كان المؤمنون مأمرين بتركه ، لضعفهم ، وعدم احتمالهم لذلك ، فلما هاجر النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، وكثر المسلمون وقوا ، أمرهم الله تعالى بالقتال ، وأخبر أنه مكروه للنفوس ، لما فيه من التعب والمشقة ، وحصول أنواع المخاوف والتعرض للمتالف ، ومع هذا ، فهو خير محض ، لما فيه من الثواب العظيم ، والتحرز من العقاب الأليم ، والنصر على الأعداء والظفر بالغنائم ، وغير ذلك ، مما هو مُرَبٍّ (أي : يزيد) على ما فيه من الكراهة (وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ) وذلك مثل القعود عن الجهاد لطلب الراحة ، فإنه شر ، لأنه يعقبه الخذلان ، وتسلب الأعداء على الإسلام وأهله ، وحصول الذل والهوان ، وفوات الأجر العظيم وحصول العقاب .

وهذه الآيات عامة مطردة ، في أن أفعال الخير التي تكرها النفوس لما فيها من المشقة أنها خير بلا شك ، وأن أفعال الشر التي تحبها النفوس لما تتوهمه فيها من الراحة واللذة فهي شر بلا شك .

(وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) فاللائق بكم أن تتمشوا مع أقداره ، سواء سرتكم أو ساءتكم " .

انتهى من " تفسير السعدي " (ص 96) .

ثانياً :

قال الله تعالى : (لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ

بِمَا رَحِبْتَ ثُمَّ وَلَيْتُمْ مُدِيرِينَ * ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (التوبة/ 25، 26 .

قال ابن كثير رحمه الله :

" يَذْكُرُ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ فَضْلَهُ عَلَيْهِمْ وَإِحْسَانَهُ لَدَيْهِمْ فِي نَصْرِهِ إِيَّاهُمْ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ مِنْ غَزَوَاتِهِمْ مَعَ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَأَنَّ ذَلِكَ مِنْ عِنْدِهِ تَعَالَى ، وَتَأْيِيدِهِ وَتَقْدِيرِهِ ، لَا بَعْدَهُمْ وَلَا بَعْدَهُمْ ، وَنَبَهُهُمْ عَلَى أَنَّ النَّصْرَ مِنْ عِنْدِهِ ، سَوَاءٌ قَلَّ الْجَمْعُ أَوْ كَثُرَ ، فَإِنَّ يَوْمَ حُنَيْنٍ أُعْجِبَتْهُمْ كَثْرَتُهُمْ ، وَمَعَ هَذَا مَا أَجْدَى ذَلِكَ عَنْهُمْ شَيْئًا فَوَلَّوْا مُدِيرِينَ إِلَّا الْقَلِيلَ مِنْهُمْ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ نَصْرَهُ وَتَأْيِيدَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ مَعَهُ ، لِيُعْلِمَهُمْ أَنَّ النَّصْرَ مِنْ عِنْدِهِ تَعَالَى وَحْدَهُ وَيُؤْمِدُّهُمْ ، وَإِنَّ قَلَّ الْجَمْعُ ، فَكَمْ مِنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ .

وَقَدْ كَانَتْ وَقْعَةٌ: "حُنَيْن" بَعْدَ فَتْحِ مَكَّةَ فِي شَوَّالِ سَنَةِ ثَمَانٍ مِنَ الْهَجْرَةِ ، وَذَلِكَ لَمَّا فَرَّغَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ فَتْحِ مَكَّةَ ، وَتَمَهَّدَتْ أُمُورُهَا ، وَأَسْلَمَ عَامَةُ أَهْلِهَا ، وَأُطْلِقَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَبَلَغَهُ أَنَّ هَوَازِنَ جَمَعُوا لَهُ لِيُقَاتِلُوهُ ، وَأَنَّ أَمِيرَهُمْ مَالِكَ بْنِ عَوْفٍ النَّضْرِي ، وَقَدْ أَقْبَلُوا مَعَهُمُ النِّسَاءَ وَالْوِلْدَانَ وَالشَّاءَ وَالنَّعْمَ ، وَجَاءُوا بِقَضِيَّتِهِمْ وَقَضِيضِهِمْ فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي جَيْشِهِ الَّذِي جَاءَ مَعَهُ لِلْفَتْحِ ، وَهُوَ عَشْرَةُ آلَافٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَقِبَائِلِ الْعَرَبِ ، وَمَعَهُ الَّذِينَ أَسْلَمُوا مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ ، وَهُمْ الطُّلُقَاءُ فِي الْأَفْنِ أَيْضًا ، فَسَارَ بِهِمْ إِلَى الْعُدُوِّ ، فَالْتَقَوْا بِوَادٍ بَيْنَ مَكَّةَ وَالطَّائِفِ يُقَالُ لَهُ "حُنَيْن" ، فَكَانَتْ فِيهِ الْوَقْعَةُ فِي أَوَّلِ النَّهَارِ فِي غَلَسِ الصُّبْحِ ، انْحَدَرُوا فِي الْوَادِي وَقَدْ كَمَنْتَ فِيهِ هَوَازِنُ ، فَلَمَّا تَوَاجَهُوا لَمْ يَشْعُرِ الْمُسْلِمُونَ إِلَّا بِهِمْ قَدْ ثَاوَرُوهُمْ وَرَشَقُوا بِالنِّبَالِ ، وَأَصْلَتُوا السُّيُوفَ ، وَحَمَلُوا حَمَلَةً رَجُلٍ وَاحِدٍ ، كَمَا أَمَرَهُمْ مَلِكُهُمْ . فَعِنْدَ ذَلِكَ وَلَّى الْمُسْلِمُونَ مُدِيرِينَ ، كَمَا قَالَ اللَّهُ ، عَزَّ وَجَلَّ ، وَنَبَتْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَهُوَ رَاكِبٌ يَوْمِئِذٍ بَعْلَتُهُ الشَّهْبَاءُ يَسُوقُهَا إِلَى نَحْرِ الْعُدُوِّ ، وَالْعَبَّاسُ عَمَّهُ آخِذٌ بِرِكَابِهَا الْأَيْمَنِ ، وَأَبُو سُفْيَانَ بْنُ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ آخِذٌ بِرِكَابِهَا الْأَيْسَرِ ، يُنْقِلَانِهَا لِنَلَا تَسْرِعَ السَّيْرَ ، وَهُوَ يُنَوِّهُ بِاسْمِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، وَيَدْعُو الْمُسْلِمِينَ إِلَى الرَّجْعَةِ وَيَقُولُ : "أَيْنَ يَا عِبَادَ اللَّهِ؟ إِلَيَّ أَنَا رَسُولُ اللَّهِ" ، وَيَقُولُ فِي تِلْكَ الْحَالِ:

أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبَ ... أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ

وَنَبَتْ مَعَهُ مِنْ أَصْحَابِهِ قَرِيبٌ مِنْ مِائَةٍ ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: ثَمَانُونَ ، فَمِنْهُمْ: أَبُو بَكْرٍ ، وَعُمَرُ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، وَالْعَبَّاسُ وَعَلِيٌّ ، وَالْفَضْلُ بْنُ عَبَّاسٍ ، وَأَبُو سُفْيَانَ بْنُ الْحَارِثِ ، وَأَيْمَنُ بْنُ أُمِّ أَيْمَنَ ، وَأُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ ، وَغَيْرُهُمْ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ثُمَّ أَمَرَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَمَّهُ الْعَبَّاسَ - وَكَانَ جَهِيرَ الصَّوْتِ - أَنْ يُنَادِيَ بِأَعْلَى صَوْتِهِ : يَا أَصْحَابَ الشَّجَرَةِ - يَعْنِي شَجَرَةَ بَيْعَةِ الرِّضْوَانِ ، الَّتِي بَايَعَهُ الْمُسْلِمُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ تَحْتَهَا ، عَلَى أَلَّا يَفِرُّوا عَنْهُ - فَجَعَلَ يُنَادِي بِهِمْ: يَا أَصْحَابَ السَّمَرَةِ . وَيَقُولُ تَارَةً: يَا أَصْحَابَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ ، فَجَعَلُوا يَقُولُونَ: يَا لِبَيْكَ ، يَا لِبَيْكَ ، وَانْعَظْ النَّاسَ فَجَعَلُوا يَتَرَاوَعُونَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، حَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ مِنْهُمْ إِذَا لَمْ يُطَاوِعْهُ بَعِيرُهُ عَلَى الرَّجُوعِ ، لَبَسَ دِرْعَهُ ، ثُمَّ انْحَدَرَ عَنْهُ ، وَأَرْسَلَهُ ، وَرَجَعَ بِنَفْسِهِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَلَمَّا رَجَعَتْ شَرِذِمَةٌ مِنْهُمْ ، أَمَرَهُمْ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يَصْدُقُوا الْحَمَلَةَ ، وَأَخَذَ قَبْضَةً مِنَ التُّرَابِ بَعْدَمَا دَعَا رَبَّهُ وَاسْتَنْصَرَهُ ، وَقَالَ: "اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي" ثُمَّ رَمَى الْقَوْمَ بِهَا ، فَمَا بَقِيَ إِنْسَانٌ مِنْهُمْ إِلَّا أَصَابَهُ مِنْهَا فِي عَيْنَيْهِ وَفَمِهِ مَا شَغَلَهُ عَنِ الْقِتَالِ ، ثُمَّ انْهَزَمُوا ، فَاتَّبَعَ الْمُسْلِمُونَ أَقْفَاءَهُمْ يَقْتُلُونَ وَيَأْسِرُونَ ، وَمَا تَرَاجَعَ بَقِيَّةُ النَّاسِ إِلَّا وَالْأَسَارَى مُجَدِّلَةً بَيْنَ يَدَيْ

رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " انتهى من "تفسير ابن كثير" (4/ 125-126) .

والحاصل : أن تولي من تولى من الصحابة رضي الله عنهم ، يوم حنين : لم يكن عن جبن ، حاشا وكلا ، ولكن هوازن كانوا رماة ، وقد كمنوا لهم في غلس الصبح ، ففاجئوهم ، فكان ما كان لأجل هول المفاجأة ، والبغطة التي بغتتهم .

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: حَدَّثَنِي عَاصِمُ بْنُ عُمَرَ بْنِ قَتَادَةَ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ جَابِرٍ، عَنْ أَبِيهِ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: " لَمَّا اسْتَقْبَلْنَا وَادِي حُنَيْنٍ ، انْحَدَرْنَا فِي وَادٍ مِنْ أَوْدِيَةِ تَهَامَةَ أَجُوفَ حَطُوطٍ ، إِنَّمَا نَنْحَدِرُ فِيهِ انْحِدَارًا ، قَالَ: وَفِي عَمَايَةِ الصُّبْحِ ، وَكَانَ الْقَوْمُ سَبَقُونَا إِلَى الْوَادِي، فَكَمَنُوا لَنَا فِي شِعَابِهِ وَأَحْنَائِهِ وَمَضَابِقِهِ قَدْ أَجْمَعُوا وَتَهَيَّأُوا وَأَعْدُوا ، فَوَاللَّهِ مَا رَاعَنَا - وَنَحْنُ مُنْحَطُّونَ - إِلَّا الْكَتَائِبُ ، قَدْ شَدُّوا عَلَيْنَا شِدَّةَ رَجُلٍ وَاحِدٍ ، وَانْشَمَرَ النَّاسُ رَاجِعِينَ ، لَا يَلُوي أَحَدٌ مِنْهُمْ عَلَى أَحَدٍ " .

انتهى من "زاد المعاد" (3/ 411) .

فلما نادى فيهم منادي رسول الله صلى الله عليه وسلم اجتمعوا من كل صوب ، وتراجعوا إليه ، وقاتلوا العدو فأظفرهم الله بعدوهم .

ثالثا :

الشعور الطبيعي بالخوف ، أو الابتلاء بشيء من الجبن عن الجهاد ، أو كراهة الموت ، لا ليس من اللازم أن يكون من النفاق ، ولا نعلم في النصوص الشرعية ما يستلزم ذلك ؛ ما لم يحمل العبد على كراهة حكم الله الشرعي فيه ، وعدم التسليم لأمره ونهيهِ .

فإذا رضي المسلم بحكم الله ، وأذعن له ، ولم يرفضه ، ولم يعترض عليه ، فهذا هو الواجب ، ولا يضره ، إن شاء الله ، لو كانت نفسه تكره الفعل طبعاً . كما قال الله تعالى في ذلك : (كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) .

قال الشيخ السعدي رحمه الله :

" هذه الآية ، فيها فرض القتال في سبيل الله ، بعد ما كان المؤمنون مأمورين بتركه ، لضعفهم ، وعدم احتمالهم لذلك ، فلما هاجر النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، وكثر المسلمون ، وقوا أمرهم الله تعالى بالقتال ، وأخبر أنه مكروه للنفوس ، لما فيه من التعب والمشقة ، وحصول أنواع المخاوف والتعرض للمتالف ، ومع هذا ، فهو خير محض ، لما فيه من الثواب العظيم ، والتحرز من العقاب الأليم ، والنصر على الأعداء والظفر بالغنائم ، وغير ذلك ، مما هو مُرَبٍّ على ما فيه من الكراهة . **وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ** ، وذلك مثل القعود عن الجهاد لطلب الراحة ، فإنه شر ، لأنه يعقب الخذلان ، وتسلب الأعداء على الإسلام وأهله ، وحصول الذل والهوان ، وفوات الأجر العظيم وحصول العقاب .

وهذه الآيات عامة مطردة ، في أن أفعال الخير التي تكرهها النفوس لما فيها من المشقة ، أنها خير بلا شك ، وأن أفعال الشر التي تحب النفوس لما تتوهمه فيها من الراحة واللذة ، فهي شر بلا شك .

وأما أحوال الدنيا ، فليس الأمر مطرداً ، ولكن الغالب على العبد المؤمن ، أنه إذا أحب أمراً من الأمور ، فقيض الله له من الأسباب ما يصرفه عنه ، أنه خير له ، فالأوفق له في ذلك أن يشكر الله ، ويجعل الخير في الواقع ، لأنه يعلم أن الله تعالى أرحم

بالعبد من نفسه ، وأقدر على مصلحة عبده منه ، وأعلم بمصلحته منه كما قال تعالى: (وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) فاللائق بكم أن تتمشوا مع أقداره ، سواء سركتم أو ساءتكم " انتهى، من "تفسير السعدي" (96) .
وليس من شرط الرضا والتسليم ألا يحس بالألم والمكاره ، بل ألا يعترض على الحكم ولا يتسخطه .
انظر جواب السؤال رقم : (148099) .

ولكن لا شك أن الذى يلقي العدو قوي الجنان ، غير هباب : أكمل إيماناً وتسليماً ممن يجد في نفسه الخوف والقلق .

ولذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم يكثر أن يتعوذ بالله من الجبن ، كما روى البخاري في صحيحه (6369) : أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ، قَالَ: " كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: (اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَمِّ وَالْحَزَنِ ، وَالْعَجْزِ وَالْكَسَلِ ، وَالْجُبْنِ وَالْبُخْلِ، وَضَلَعِ الدِّينِ، وَغَلَبَةِ الرِّجَالِ) .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يعتني بتعليم أصحابه التعوذ من ذلك :

وفي صحيح البخاري (6390) عن سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ ، عَنْ أَبِيهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: " كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُعَلِّمُنَا هَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ ، كَمَا تَعَلَّمُ الْكِتَابَةُ: (اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْبُخْلِ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجُبْنِ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ تُرَدَّ إِلَيَّ أُرْدَلَ الْعُمُرِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الدُّنْيَا، وَعَذَابِ الْقَبْرِ) .

وإذا وجد العبد من نفسه شيئاً من ذلك فعليه أن يستعين بالله ويتوكل عليه.

قال الله تعالى : (الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ * فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمَسْسَهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ * إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا اللَّهَ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) آل عمران/ 173- 175 .

وعليه أن يتذكر ما وعد الله به عبادَه من النصر والفوز المبين أو الشهادة والمنزلة العالية الرفيعة .

وأيضاً : فليتذكر سير السلف الصالحين ، وأهل الجهاد والنصرة ، الذين سخرهم الله تعالى لفتح البلاد ونشر دينه في الآفاق ، وقد كانوا المثل الأعلى في الشجاعة والإقدام .

فذلك كفيْل أن يصرف الله به عنه ما يجده في نفسه .

والله تعالى أعلم .